المرض
بلاء وعطاء

إعداد

خليل بن إبراهيم أمين

مصدر هذه المادة :





بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

عشت مع المرض والمرضى فترة من حياتي لا أكاد أنساها، عشت مع المرضى أقاسمهم الألم وأشاركهم الأنين وذلك من خلال عملي -فترة ما- في لجنة توعية المرضى بمستشفى الرياض المركزي، كنت أُعالج فيها كل صباح بين جنبيَّ نفسًا حسَّاسةً، تتألم للشيء وهي تتخيله وتئن للوهم وهو يمر بها، فكيف بها وأنا سأعرض عليها بعد قليل صور الواقع لا الخيال ورسوم الحقيقة لا الوهم..

فهذا مشلول لا تتحرك إلا عيناه لانقطاع الحبل الشوكي. وذاك مسلول قد هاضَ لحمه وغاضَ دمه كأن جلده قد شد على عظام، ومكبود مُستسْقَى البطن قد يبس كبده من التلف فهو يترقب داعي الموت، ومكسور بكسور مضاعفة قد لفت الجبائر جسده لفًا كاملاً كأنه مقبور في كفن من الجبس، ومُسَرْطَنٌ قد جفا النوم عينيه فهو يستجدي دقائق ليغفو فيها من شدة ما به من آلام، وصاحب الكُلَى الذي يستنشق الحياة مرتين أسبوعيًا تحت آلة غسل الدم. والمصروع والمجلوط، والمجذوم والمفلوج.. وصور من أمراض شتى لو أتيح لصاحب بيان أن يرسمها بقلمه لأخرج لنا لوحة تستدر الدمع من أقسى القلوب قساوة.

لا أدري لماذا توالت تلك الصور تتقافز في ذاكرتي وأنا أقرأ رسالة وصلتني من إحدى المجلات الدعوية تدعوني للمشاركة في

تحقيق لها عن المرض والمرضى، ومن موافقات القدر أن وافتني تلك الرسالة وأنا أعاني– وقتها– من وعكة صحية شديدة زاد من ألمها ما كنت أشعر به حقيقة من سياط للقهر تلسع أعصابي، ومرارة للظلم أجد غصتها، في حلقي نتيجة لما أراه يحدث لإخواننا المسلمين من (بلطجة) أممية على أيدي لصوص البشر من الصليبيين الجدد يسرقون ثرواتهم، ويهرقون دماءهم الزكية، وينتهكون أعراضهم المصونة، ثم لا يتورعون بعد ذلك أن يخرجوا للعالم ألسنتهم صباح مساء –قاتلهم الله– بكذب مُصَفًّى لا تشوبه شائبة من صدق يرتلون فيه حديث الحرية والديمقراطية وتلك بلية أخرى.

عندئذ وجدتها فرصة في أن أُسَامِرَ نفسي وأُسَلِّيها وسط هذا الجو الملبد بالغيوم، وأن أُواسي إخواني من المرضى الذين كنت أقرأ في أعينهم بريق الأمل نحو مزيد من الحياة وألمس في نفوسهم حب التنفيس في الأجل، وهذا ما كان على الفور نَحَّيْتُ الرسالة بجانبي، وأقمت المرضى أمامي، ورحت أبثهم على الورق حديث النفس إلى النفس بالصدق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، عن البلاء والحكمة منه والمرض وأجر الصبر عليه، والقضاء والقدر ووجوب الإيمان والرضا به، وتذاكر سير القدوة من العلماء والصالحين حال مرضهم، وغيره مما اشتملت عليه أسئلة التحقيق، ومما كنت أرى في نفسي أنني بأَمَسِّ الحاجة إليه في ذلك الوقت العصيب.

لم أعبأ بقيود المجلة، وأطلقت لقلمي العنان يجري حيث يشاء فلم يتوقف إلا بعد أن سوَّد أربع عشْرة ورقة كاملة أو تزيد، وإذا

كان من الطبيعي أن يصدر عدد المجلة وقد اختصر من الكلام لطوله، إلا أنه من غير الطبيعي- بالنسبة لي- أن يقع الاختصار على طريقة بتر الأعضاء فقد كنت أرجو أن يكون الاختصار متساويًا في جميع الأسئلة فيحقق بذلك ما أردته من فائدة لإخواني، ولكن المجلة أبت إلا أن تكتفي بسؤالين من سبعة أسئلة أحدهما كان شخصيًا اختياريًا أجبت عليه بعد تردد طويل حين سوَّلت لي نفسي أن أجعله بمثابة الملح على الطعام، فلما وقع اختيارهم عليه خرج الكلام، -من وجهة نظري- أكثر ملحًا.أما أنا فقد آثرت أخي المريض- أن أقدم لك اللقاء هنا كاملاً وإن شئت فقل: هذا هو اللقاء مملوحًا.

تلكم كانت أسباب هذه الرسالة لتنضم بعد ذلك إلى أخواتها من ذكريات الحياة التي تُطوى والتي غالبًا ما تمضي بحلوها ومُرها، وأفراحها وأتراحها، وصحتها وسقمها، لكن البعض منها يبقى ذا بصمات واضحة محفورة في العاطفة والوجدان، فما إن يكاد يمر خياله بالذاكرة حتى تكاد تشرق بالدمع من ذكراها.

الله أسأل -بمنه وكرمه- أن يجعل لك في كل كلمة من كلمات هذه الرسالة متنفسًا تتنفس منه نسمات العافية وإلى نص اللقاء.

نَصُّ اللقاءِ

س: ماذا يعني البلاء للمؤمن؟

بسم الله الرحمن الرحيم، أحمدك ربي حمدًا يبلغني رضاك، وإن كان جَهْدُ الحمد لا يفي بشكر نعمة واحدة من نعمك، وأصلي وأسلم على خير خلقك، وخاتم رسلك، وأمينك على وحيك، صلاة أَزْدَلِفُ بها إلى مغفرتك، ورضي الله على صحابة نبيك أجمعين وتابعيهم ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليمًا كثيرًا وبعد.

فهذا الدين عظيم وتتجلى عظمته ويتوهج عطاؤه في وقت البلاء والمحن. فمع هذا الدين تنبثق الحياة من الألم، ويلبس العطاء ثوب البلاء وتولد المنحة من رحم المحنة، وهذا هو سر بقائه، وعطائه المتجدد رغم ما لاقاه من محن وأهوال.

فيعني البلاء العام للمؤمنين النصر والتمكين واقتراب الفرج والشدة أكثر ما تكون اشتدادًا فهي أقرب ما تكون انفراجًا وانبلاجًا، ويعني البلاء الخاص للمؤمن رفع الدرجات، ومحو السيئات ومحبة الرحمن وإغاظة الشيطان مع الصبر والرضا، فالبلاء مع المؤمن كالغيث للأرض، فبينما تكون الأرض جدباء مقفرة إذا بالصَّـــيِّب النافع يذهب وحشتها ويذيب قسوتها، ويجلو ما انحط عليها من الأوساخ والقاذورات قال تعالى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ**﴾ ولولا هذه

اللطيفة لما كان للعطاء أي قيمة ولا للعمل أي معنى ولكان مبتذلا يتشدق به كل دعي وينتحله كل منافق قال تعالى: ﴿**الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ**﴾ وقال تعالى: ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ**﴾ وقال تعالى: ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ**﴾ فالذين يريدون الكرامة والرفعة والدرجة العالية من الجنة بدون بلاء واهمون ويبنون آمالهم على رمال من سراب.

كيف لا! وقد جرى على الأنبياء وهم صفوة خلق الله ما جري من البلاء مما يعرفه العام والخاص، فهذا آدم بعد أن طاب له المقام في الجنة خرج منها ونزل إلى الأرض وهذا من أعظم البلاء، ونوح يدعو إلى الله في قوم غلاظ جفاة قساة قرابة الألف سنة ثم يسأل الله في ابنه فلم يعط مراده ويهلك مع الهالكين ويُبتلى الخليل بالنار ثم بذبح ولده وثمرة فؤاده، ويُبتلى يعقوب بفقد ولده وفلذة كبده، ويُبتلى يوسف بمجاهدة الهوى، ويُبتلى أيوب بالمرض، ويُبتلى داود وولده سليمان بالفتنة، ثم يتقلب خاتمهم وعقد نظامهم محمد ﷺ في أنواع من البلايا التي لا تُطِيْقُها الجبال الراسيات.

وتجري هذه السنَّة الأزلية على أولياء الله والعلماء والصالحين من عباده فيتقلبون في أنواع، من البلايا كل بحسب مرتبته كما قال

النبي ﷺ في حديث مصعب بن سعد عن أبيه قال: «قلت يا رسول الله: أي الناس أشد بلاء؟ قال: الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل من الناس، يُبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه، وإن كان في دينه رقة خفف عنه ولا يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشي على الأرض ليس عليه خطيئة» والحديث صحيح رواه بعض أصحاب السنن والمسانيد فلماذا كل هذه الأنواع من البلايا للأنبياء والأولياء والصالحين لحكم وفضائل كثيرة منها:

رفع درجاتهم: كما قال النبي ﷺ: «**ما من مسلم يشاك بشوكة فما فوقها إلا رفعه الله بها درجة وحط عنه بها خطيئة**» رواه مسلم وقال رسول الله ﷺ: «**إن الرجل لتكون له عند الله المنزلة العالية فما يبلغها بحسن عمل فلا يزال الله يبتليه بما يكره حتى يبلغه إياها**» والحديث في صحيح الجامع.

تكفير خطاياهم: كما قال النبي ﷺ: «**ما من مرض أو وَجَعٍ يصيب المؤمن إلا كان كفارة لذنبه حتى الشوكة**» متفق عليه. وقال ﷺ: «**ما من مسلم يصيبه أذى من مرض فما فوقه إلا حط الله خطاياه كما تحط الشجرة ورقها**» متفق عليه.

محبة الله لهم: كما أخبر بذلك النبي ﷺ بقوله: «**إذا أحب الله قومًا ابتلاهم فمن صبر فله الصبر ومن حرج فله الحرج**» أخرجه أحمد والحديث صحيح.

تمييزهم عن المنافقين والفاجرين: فبينما تجد المؤمن يتقلب في

أنواع من البلايا تجد الفاجر والمنافق يختال في الأرض اختيالاً حتى يقتلع منها انقلاعًا لا يبقى بعده من أثر فهو كالشجرة المنجعفة التي لا تصلح إلا لقود النار كما قال النبي ﷺ :«**مثل المؤمن مثل خامة الزرع لا تزال الريح تميله، ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء ومثل المنافق كمثل شجرة الأرز لا تهتز حتى تستحصد**» وفي رواية: «**لا يكون انجعافها إلا مرة واحدة**» متفق عليه.

هذه بعض فضائل البلاء وهناك بعض الحكم والأسرار التي لا يتبينها العبد لقصور عقله عن فهمها:

فكم من معوج لم يقومه إلا سوط البلاء. وكم من شارد عن الحق لم يأت به إلا رسول البلاء. وكم من متكبر زنيم لم يجدع أنفه إلا سيف البلاء. وكم من رحم مقطوعة لم يصلها إلا رسول البلاء. ومن اللطائف الجميلة في البلاء أن هذه الفضائل تأتي لأصحابها رغم أنوفهم ولو خيروا لاختاروا السلامة من غير معصية ولا ذنب، وانظر إلى مريم ابنة عمران حينما ابتليت بما يتهمها في شرفها وعرضها ولا تستطيع إنكاره تمتمت بلسان الحسرة والخوف وهي تقول: ﴿**يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا**﴾ ثم كانت الكرامة حين نطق وليدها وصغيرها ليخاطب أهل البهت والكذب من يهود وليدفع عن أمه كل شبهة ولتبقى معجزة خالدة أبد الدهر.

ومثل هذا وقع لأُمِّنا عائشة -رضي الله عنها- في حادثة الإفك، تقول أم رومان: "إن عائشة حينما سمعت بالإفك خرت

مغشيًا عليها فما أفاقت إلا بحمى بنافض" وتحكي هي عن نفسها فتقول: "بكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم وأبواي يظنان أن البكاء فالق كبدي".

يا الله! كل هذا يحدث لجارية حديثة السن كانت تنام عن عجين أهلها حتى تأتي الداجن فتأكله كما قالت بريرة. ثم ماذا؟ ثم تنقشع الغمة وتنزل براءتها في عشْر آيات تُتلى إلى يوم القيامة، تقول -رضي الله عنها: "ما كنت أظن أن الله منزل في شأني وحيًا يُتلى ، ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيَّ بأمر يتلى". هذه بعض الحكم والأسرار والفضائل التي يعنيها البلاء للمؤمن، وليس معنى هذا أن يتمنى العبد البلاء، فالسلامة لا يعدلها شيء.

س٢: كيف يكون تلقي نبأ البلاء (بالمرض) أيًا كان نوعه؟

ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ قوله: «**بشروا ولا تنفروا يسروا ولا تعسروا**» والإنسان ضعيف الحول مهما اصطنع القوة قال تعالى: ﴿**وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا**﴾ ولفظة المرض بغيضة إلى النفوس — لا سيما وإن كان خطيرًا- لأنها تختزل عمر الإنسان كله في ثوان معدودة، ولا تتضح أمام المريض وقتها إلا صورة القبر وضيعة الأبناء ونكاح الزوجة وقسمة الميراث.

أما كيف يتلقى المريض نبأ المرض فهذا يتوقف على أمرين:

أولهما: نوع المرض.

ثانيهما: شخص المريض.

فأما نوع المرض فظني أن لا يخرج عن ثلاثة أقسام:

أولهما: أمراض دارجة: كالصداع والزكام والمغص. وهذا القسم لم يسلم منه أحد على الغالب.

ثانيهما: أمراض مزمنة: وهي التي استطاع الطب أن يروضها ويجعل المريض يتعايش معها كالسكر والقلب.

الثالث: أمراض خطيرة وهي التي وقف أمامها الطب متحيرًا عاجزًا ليصدق فيهم قول الله -تبارك وتعالى: ﴿**وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا**﴾ كالسرطانات والفيروسات وغيرها.

أما ما يتعلق بشخص المريض فلا يخرج عن ثلاثة أقسام أيضًا:

الأول: الشجاع البطل الذي لا يهتز كثيرًا مهما كان نوع الخبر ومهما كانت خطورته، وهذا النوع من الرجال غالبًا ما يتكيف مع مرضه سريعًا ويصادقه بعد أن يتخطى صدمة المفاجأة.

الثاني: الجبان الخواف الذي ما إن يُلقى عليه الخبر حتى يغدو نهبة للأوهام والتوتر والقلق فيزداد مرضًا على مرضه.

الثالث: وهو وسط بين هذا وذاك، وين الأقسام الثلاثة درجات أُخر والمُثبت من ثبته الله تبارك وتعالى.

وبعد هذا التقسيم تتضح الإجابة على السؤال، فإن كان المريض من النوع الشجاع وأصيب بأي قسم من أقسام المرض خف الأمر كثيرًا على المريض وأهله، وإن كان العكس فالعكس وعلى هذا فقس.

ومهما يكن من أسباب ومُسببات فإني على قناعة تامة بأن الشخص الذي يُربى على مائدة القرآن والسنة، ويشرب منها عقيدة التوحيد الصافية، كعقيدة الإيمان بالقضاء والقدر والتوكل على الله والثقة فيه، هذا الشخص قلما يبدو عليه أي أثر لأي خبر مهما اشتدت به الخطوب أو تكالبت عليه النوائب، فلا يزيد على أن يردد خلف نبيه محمد ﷺ: «**قدر الله وما شاء فعل**» ومن أجمل ما قرأت لأحد الغربيين قوله: "أبعد الناس عن العيادات النفسية ألصقهم بدور العبادة".

س٣: ما هي الأسباب المعينة على الرضا بالقضاء والقدر والتسليم له؟

الأسباب كثيرة، وأولها: أن يؤمن العبد إيمانًا راسخًا بالقضاء و القدر قال تعالى: ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾، وقال: ﴿**مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ**﴾ الآية ،وقال تعالى: ﴿**مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾، وفي حديث جبريل المشهور أن النبي ﷺ قال: «**الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره**».

والإيمان بالقدر يتضمن أربع درجات كما بين ذلك علماؤنا:

الأول: الإيمان بعلم الله الأزلي قبل وجوده قال تعالى: ﴿**أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ**

ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

الثانية: الإيمان بأن الله كتب ذلك في اللوح المحفوظ ففي حديث عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة**» رواه مسلم في الصحيح.

الثالثة: الإيمان بمشيئة الله الشاملة لكل حادث، وقدرته التامة عليها قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ**﴾، وقال: ﴿**وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾.

الرابعة: الإيمان بإيجاد الله لكل المخلوقات، وأنه الخالق وحده، وما سواه مخلوق قال تعالى: ﴿**اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ**﴾.

ثاني الأسباب المعينة على الرضا بالقضاء والقدر: هو أن يعلم العبد أن أقدار الله تعالى وأفعاله كلها خير وحكمة، وأن ما قدره عليه هو خير للعبد، وأن الشر الحاصل في البلاء هو شر المقدور لا شر القدر، ودليله دعاء النبي ﷺ ومناجاته ربه بقوله: «**والشر ليس إليك**».

ثالث هذه الأسباب: أن يعلم العبد أن الشر الحاصل في البلاد ليس شرًا محضًا فقد ينتج عنه أمور في غاية الخيرية كما قال تعالى بعد أن ذكر حادثة الإفك: ﴿**لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ**﴾ وبذلك يُعلم أن الشَّـــرِّيَّة بالنسبة إلى البلاء أمر إضافي.

رابع هذه الأسباب: أن يعلم العبد أن ما أصابه من البلاء هو جزاء ما جنته يداه: كما قال تعالى: ﴿**أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ**

أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ فكل ما يصيب العبد من خير فهو من بركة عمله الصالح، وما يصيبه من بلاء وشدة فهو من شؤم ونحس عمله الفاسد، أما الجزاء على الأعمال فقد قال تعالى: **﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾**.

خامس الأسباب التي تجعل العبد يرضى ويسلم لقضاء الله وقدره: هو معرفته بثمرات الإيمان بالقضاء والقدر ومنافعها العظيمة الجليلة فمن هذه الثمرات.

صحة إيمان العبد بتكامل أركان إيمانه: وهذا من أعظم ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر.

طمأنينة النفس وانشراح الصدر ونبذ القلق والتوتر: حينما يستشعر العبد قول النبي ﷺ: «**واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن لصيبك**» رواه الترمذي.

الثبات عند مواجهة الأزمات، واستقبال مشاق الحياة بجنان ثابت وقلب لا يلين: لأنه يعلم أنه في دار بلاء وامتحان كما قال تعالى: **﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾**.

تحويل المحن إلى منح والمصائب إلى أجر: قال تعالى: **﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾** هذه هي بعض الأسباب المعينة، فإن آمن بها العبد وعلمها حق العلم رضي وسلم لما يجري عليه من أقضية الله وأقداره.

س٤: سؤال مررتم بتجربة مماثلة ما هي الفوائد التي استفدتموها من تجربة المرض؟(اختياري).

الحديث عن النفس شاق وعسير والإنصاف فيه عزيز، فالمرء إِمَّا أن يغلو في تقدير ذاته وما صدر عنها، وإما أن يغمطها حقها ويهون شأنها فيسلبها ما لها، أَمَّا أن تقف من نفسك موقف القاضي العادل فمطلب عِزٍّ حتى على الحكماء.

وجمال النفس يكمُن في صدقها الخالص، مع النفس أولًا ثم مع الغير ثانيًا؛ لأن هذا الصدق سيتيح لها أن تُصور ما يعتمل بداخلها وما يتنازعها من نوازع شتى بريشة بارعة التصوير مُحكمة الأداء.

ومن هذا المنطلق أقول: نعم مَرِضْتُ ومن منا لم يمرض؟! وتألمت في مرضي، ومن منا لم يتألم؟ وخرجت من مرضي بدروس شتى وهل الحياة إلا دروس وعبر؟!!

عرفت في مرضي قيمة الصحة ونعمة العافية والإنسان لا يدرك ذلك إلا إذا زاره زائر المرض، وهذا هو أول درس تعلمته من محنة المرض.

ثانيها: كنت في عافيتي أنظر إلى المرض من مسافة بعيدة جدًا فلا أكاد أراه، كأنه في حافة الدنيا وأنا على الحافة الأخرى منها فإذا هو أقرب إلي من حبل الوريد.

وثالثها: أنني كنت في صباي عريض الأمل واسع الطموح، والفتى في طور اليفاعة ينثر أحلامًا وردية يتطلع بها إلى غد مشرق منير، فكان هذا مما يرهق جسدي في تحصيلها، فلما غدوت عليلا

أصبحت كالنسر الحبيس يرفرف بجناحيه فلا يكاد يطير ،فتعلمت من هذا أن على الإنسان أن يغتنم رياحه إذا هبت وأن يحتلب نياقه إذا درَّت، ولا يؤخر ولا يسوف فلربما اخترمته المنية أو زاره زائر المرض، ولا ينبيك عن هذا مثل محمد ﷺ حين يقول: «**اغتنم خمسًا قبل خمس... وفيها حياتك قبل موتك، وصحتك قبل مرضك**».

واربعها: أنني كنت إذا زرت مريضًا أو حكي لي عن مريض نزل به مثل ما نزل بي اليوم كان يصيبني الدوار رثاء له وخوفًا عليه، فلما زارني المرض رأيت ما أنا فيه امتحانًا لإيماني، ونعمة من الله تزيد في أجري فتجلدت.

وخامسها: أنني رأيت المرض محطة يتوقف فيها المرء مُكرهًا لا مختارًا فتمنحه هذه الوقفة فرصة يراجع فيها أمره، مع الله أولاً ومع الناس ثانيًا، ومع النفس ثالثًا تجهزًا للرحيل.

وسادس هذه الدروس: أنني وجدت أن المرض تمحيص، تمحيص حتى لأولئك الرجال المتعاملين معك من حولك، فمع المرض تبين لك معادن كثير من الرجال فتعتدل بذلك كفتا الميزان فترجح بأناس وتطيش بآخرين وكما قال أحدهم:

ســــبكناه حبســــناه لجينـــا فأبدى الكير عن خبث الحديد

هذا ما يحضرني عن هذا السؤال، وهناك أمور أخرى أحتفظ بها لشخصي.

س٥: ما هي الأسباب الشرعية للشفاء؟ وكيف يتم الانتفاع بها؟

أول هذه الأسباب الرقية الشرعية: أن يقرأ المريض وينفث على نفسه بفاتحة الكتاب وسورة الإخلاص والمعوذتين ثلاثًا أو خمسًا أو سبعًا. كذلك ما ثبتت في السنة بأن يضع المريض يده على الذي يؤلمه من جسده ويقول: «**بسم الله**» ثلاث مرات. ثم يقول: «**أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر**» سبع مرات، ومنها أن يقول: «**أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيني**» سبع مرات، ومنها أن يمسح المريض بيده اليمنى على الألم ويقرأ: «**اللهم رب الناس اذهب البأس واشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقمًا**» وغيرها من الرَّقى الثابتة في كتب السنة.

ثاني: الأسباب الشرعية للشفاء هو استخدام الدواء النبوي:

والدواء النبوي إذا أحسن فهمه واستخدامه على الوجه الصحيح نفع- بإذن الله -لأنه مبني على الوحي الرباني لا على التجارب البشرية، فقد أخبر النبي ﷺ عن بعض الأدوية بأنها شفاء من كل داء، كالسنا والسنوت والحبة السوداء وأخبر عن الحجامة وألبان الإبل مع أبوالها والسعوط واللدود وكلها مبسوطة في كتب الطب من الصحاح والمسانيد، وجاء النص القرآني يخبر عن العسل بأنه ﴿**فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ**﴾ وتأمل جيدًا كلمة (شفاء) فبينها وبين كلمة (دواء) بونٌ شاسع حيث الشفاء يكون محققًا.

والآن هناك توجه عالمي ملحوظ إلى العلاج بالأدوية الطبيعية بما يسمى حديثًا (بالطب البديل) كالعلاج بالماء، والعلاج بالغذاء، والعلاج بالأوزون، والعلاج بالحجامة والتي هزَّت الأوساط العلمية عالميًا خصوصًا بعد صدور المرجع الموثق للدكتور شيخو- رحمه

الله- (معجزة القرن العشرين) وترجمته إلى لغات عدة.

ثالث الأسباب الشرعية للشفاء: هو الإلحاح على الله بالدعاء: ورفع أكف الضراعة بالتزلف إليه سبحانه، وأن ينطرح العبد بين يدي خالقه ومولاه ويظهر الفاقة والانكسار، لا سيما في الأوقات مظنة الإجابة كجوف الليل الآخر وأدبار الصلوات المكتوبة وبين الأذان والإقامة وأيام الصيام، وأن يتخير العبد من ألفاظ المناجاة أحسنها ،وأن يدعو الله أن يُوَفِّقَه إلى ذلك ،فمن وُفِّقَ إلى الدعاء وُفِّقَ إلى الإجابة.

أما كيفية الانتفاع بهذه الأسباب فهي:

أن يعتقد العبد أن هذه الرُّقى وهذه الأدوية النبوية صادرة من الوحيين الشريفين لا من التجربة والحدس فهي نافعة شافية بإذن الله.

أن يداوم المريض على رقية نفسه ولا يمل من ذلك، لأن الله عز وجل لا يمل حتى تملوا، ويحب الملحين في الدعاء والرقية من جنس الدعاء، قال الشوكاني – رحمه الله: إن التداوي بالدعاء مع الالتجاء إلى الله تعالى أنجع وأنفع من العلاج بالعقاقير.

أن يزاوج المريض بين استخدام الرقية وبين ما يناسب مرضه من الأدوية النبوية، ومن الأدوية الطبية المباحة.

وبهذا يمكن الاستفادة بالأسباب المشروعة للشفاء.

س٧: كيف يمكن للشخص أن يتغلب على مرضه فيواصل عطاءه ويستمر نشاطه بعون الله؟

لا أجد له أعظم من المعايشة التامة مع كتاب الله- عز وجل- قراءة وفهمًا وتدبرًا.

فمع القرآن: يعيش المريض هادئ النفس قرير الضمير وهو يرى قضاء الله وقدره في كل فعل وكل أمر وكل حادث قال تعالى: ﴿**وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا**﴾.

ومع القرآن: يستروح المريض نسمات العافية وهو يقرأ قوله تعالى: ﴿**وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآَنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾ ،وقوله: ﴿**قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آَمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ**﴾، وقوله عن إبراهيم: ﴿**وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ**﴾.

ومع القرآن يتذوق المريض حلاوة الرضا والتفويض والشكر وهو يقرأ قول الله تعالى: ﴿ **وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾.

ومع القرآن: يجد المريض مرارة الصبر أحلى من العسل وهو يقرأ وعد الله عز وجل لأهل الصبر: ﴿**وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾، وقوله: ﴿**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾، ويقرأ أمر الله لعباده بالصبر في قوله: ﴿**فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ**﴾، وقوله على لسان لقمان: ﴿**وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ**﴾، ثم يستطيب خاطره وهو يقرأ ثناء الله تعالى على الصابرين من عباده في قوله: ﴿**إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ**﴾.

ومع القرآن: يراجع المريض حاله مع الله وهو يرى ما وعد الله

به أهل التقوى من عباده في قوله: ﴿**وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ**﴾ ،وقوله: ﴿**وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا**﴾، وقوله: ﴿**وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا**﴾.

فأي طمأنينة يسكبها هذا الكتاب في النفس؟ وأي سكينة يفيضها على القلب؟ وأي قوة وثقة وراحة يضفيها على الجسد؟ فلو اكتفى المريض وغير المريض بكتاب ربه لكفاه.

كذلك من الأشياء التي تعين المريض على مواصلة حياته بشكل طبيعي هو النظر في سير العظماء حال مرضهم، ولا أذهب بعيدًا في هذا فأوغل في التاريخ القديم ولكن أحكي ما رأيته وشاهدته:

سماحة والدنا وشيخنا عبد العزيز بن باز: رحمه الله وأسكنه أعالي الجنان، انظر كيف كان هذا الجبل الأشم حال مرضه، كان يذهب إلى الدوام وإلى دروس العلم ويفتي ويشفع في قضاء الحوائج، هذا وهو شيخ ناهز الثمانين ومريض بمرض يهد الجبال، فعل هذا حتى آخر يوم من حياته، ولا زلت أحتفظ بورقة صادرة لي من سماحته ليس بينها وبين وفاته- رحمه الله- إلا وجه من نهار حيث صدرت هذه الورقة في ليلة ١٤٢٠/١/٢٥هـ وكانت وفاته فجر الخميس ١٤٢٠/١/٢٧هـ.

أيا شيخ الجزيرة يا ابـــن بـــاز ويا من كنت في الدنيا مُهابـــا
وفاتك ثلمة في كـــل قلـــب لفقدك صار ينتحب انتحابـــا
أراني إن ذكرتك هاج حـــزني ودمع العين ينسكب انسكابًا

وقل مثل هذا عن سماحة الشيخ ابن عثيمين – رحمه الله- فسوف يسطر التاريخ أن عالمًا ألقى محاضرة في بيت الله الحرام في أخريات حياته وهو محمول على سرير المرض تحيط به الأجهزة الطبية من كل جانب.

يقول الشيخ سعد البريك: رأيته في مطار جدة ينزلونه من سيارة الإسعاف على سرير وهم يتجهون به إلى طائرة الإخلاء، فأسرعت إليه وقبلت رأسه وسلمت عليه وقلت له: كيف حالك يا شيخ ؟ فرد علي قائلا: بخير، قلت له: هل تشتكي وجعًا؟ فقال: لا، والحمد لله.

أولئك آبائي فجئني بمثلهم   إذا جمعتنا يا جرير المجـــامع

والشيخ القارئ أحمد خليل شاهين: رأيت منه عجبًا في مرضه- شفاه الله- فقد حسبت له قرابة الخمس عشْرة ساعة عمل يوميًا هذا قبل إجراء عملية الزراعة، وموصوف له الراحة التامة، وأرجو من الشيخ أن يعذرني إذا أذعت عنه هذا، فإن لم يسمح لي فليسامحني.

بقي أن أقول: إن على المريض أن يقيم حارسًا على معنوياته ونفسيته أن تشوبها شائبة أو يكدر صفوها مكدر، فللعامل النفسي أكبر الأثر في حمل المريض على التكيف مع مرضه وممارسة حياته بصورة طبيعية ، ومن ثم الشفاء من المرض إن شاء الله ويحضرني الآن قول شيخ الإسلام لطبيب نصحه بالراحة التامة وعدم القراءة والكتابة حتى يطيب من مرض أَلَّمَ به، فقال له شيخ الإسلام: ألستم تزعمون أن النفس إذا قويت كان هذا دافعًا لها لطرد الداء. قال الطبيب: بلى فقال له شيخ الإسلام: فإن نفسي لا تقوى إلا

بالاشتغال بالعلم والقراءة والكتابة فيه.

تلك المكارم لا قعبان من لبن   شِيبا بماءٍ فعادا بعد أبـــوالا

وبعد: فالشدة بتراء لا دوام لها، فمهما عظمت وامتدت لا تخلد على مصابها، بل إنها أقوى ما تكون اشتدادًا واسودادًا أقرب ما تكون انقشاعًا وانفراجًا وانبلاجًا فيأتي العون والإحسان عند ذروة الشدة والامتحان.

وكل الحادثات إذا تناهت   فموصول بها فرج قريـــب

وهكذا نهاية كل ليل غاسق فجرٌ صادق قال تعالى: ﴿**فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا**﴾ ولن يغلب عسر يسرين كما روي ذلك عن النبي ﷺ.

أقول هذا لكل من عاش ضائقة، أو أَلَّمَ به هم، أو أقض مضجعه أرق، أو سهد نومه مرض، أو طاف به طائف من فجيعة وأَيُّنَا يخلو من ذلك؟!!

فيا أيها المريض المكروب خَفِّضْ من حزنك وكَفْكِفْ من دمعك فتلك سنة الله في الدنيا وهذه خلتها في جميع بني آدم، سواء في ذلك ساكن القصر أو ساكن الكوخ، ومن يطأ بنعله هام الجوزاء، ومن ينام على الغبراء.

فاصبر -يا رعاك الله- فما أنت بأول من جرى عليه القدر، وما مصابك بالبدعة الفريدة في جريدة المصائب والأحزان، وصلى الله على المبعوث رحمة للعالمين.

وكتبه

مُحِبُّك في الله

أبو المنذر خليل بن إبراهيم أمين